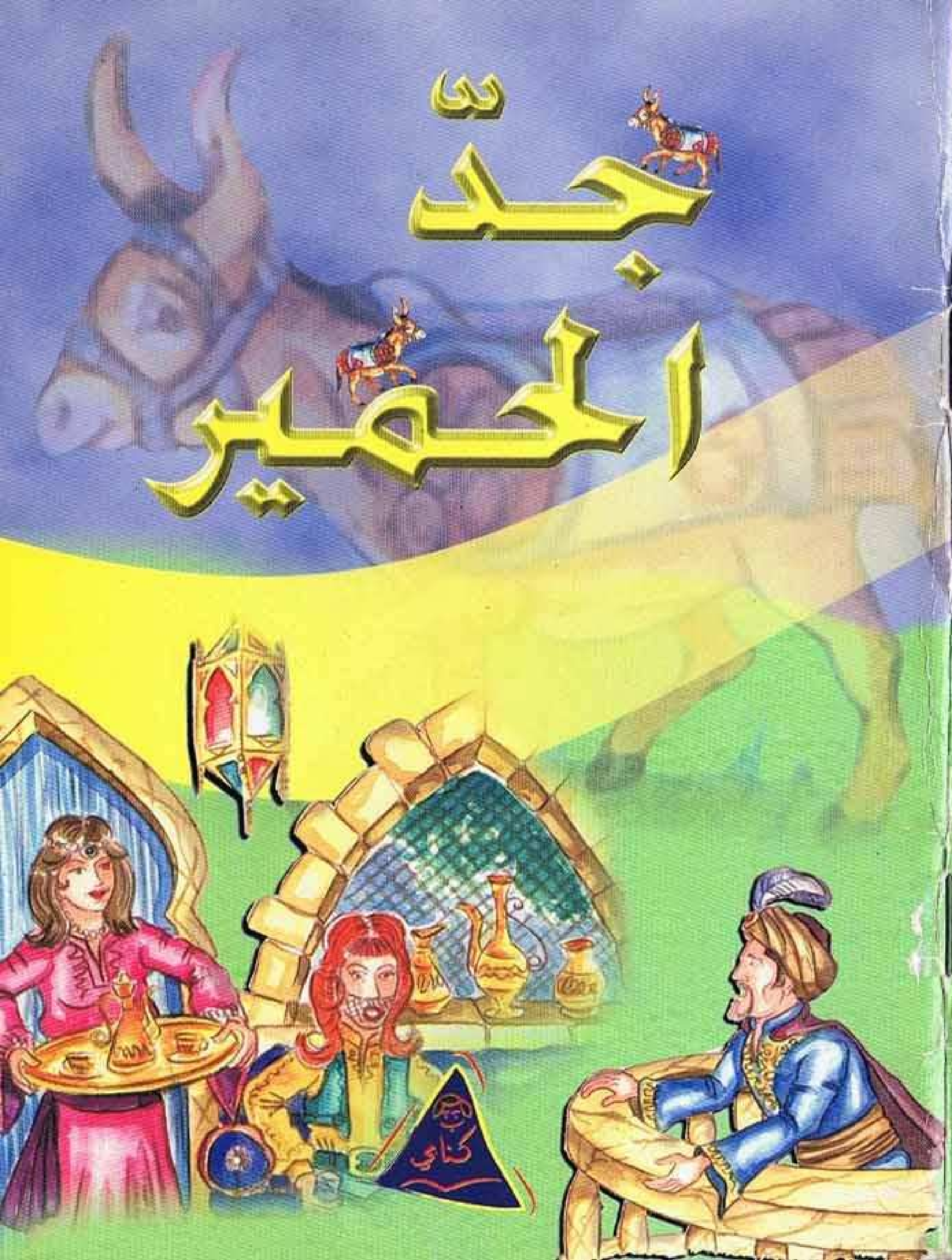

جدّ
الحمير

أصالة

أصالة للنشر والتوزيع تلفون: 01/736093 فاكس: 01/735295 ص. ب. 11/3434
بئر حسن - بناية الدجى - بيروت - لبنان

جد الحمير

تأليف
د. عبدالحميد فايد
رسومات
الكس مشعلاني



جَدّ الحمير

كُلّما خرجتُ إلى البرِّيَّة، أو زُرْتُ إحْدى القُرى، وصادَفْتُ حِماراً يَحْمِلُ حِمْلاً مِنَ الحَطَبِ، أو كيساً مِنَ القَمْحِ، أو بَعضَ الخُضار، نَظَرْتُ إلى هذا الحَيوانِ الصَّبورِ بِعَطفٍ وإشْفاقٍ من جِهة، ثم ضَحِكْتُ لِرؤيَتِه بِملءِ فَمي، من جِهَةٍ أُخرى..

أما الباعِثُ على العَطفِ والإشْفاقِ، فهو شُعورٌ إنسانيٌّ نَحوَ جميعِ الحَيوانات الّتي خَلَقَها اللّهُ، ووُجوبِ الرِّفْقِ بِها... لأنَّ وُجودَ هذه الحَيَواناتِ من نِعَمِ اللّهِ على الإنْسان.

بعضُ هَذِهِ الحَيَواناتِ يَفْلَحُ لَنا الأَرضَ، وبعضُها يُعطينا الأَلبانَ واللُّحومَ، وبعضُها يَحمِلُ مِتاعَنا، ونَنْتَقِلُ فَوقَ ظُهورِها من مكانٍ إلى آخر، ومن بَلَدٍ إلى بَلَد..

ولو شِئْتُ أن أُعَدِّدَ نَفْعَ الحَيوانِ لِبَني الإنسان، لاحْتَجْتُ إلى صَفَحاتٍ كثيرةٍ لأَفِيَهُ حَقَّهُ عَلَينا، وأصِفَ فَضْلَهُ في تَسْهيل أمورنا.

وأما سَبَبُ الضَّحِكِ، فَلأنَّني تذكَّرْتُ قِصَّةً طريفةً قَصَّتْها علَينا جَدَّتي، وأنا صَغيرٌ، ولا أَزالُ إلى اليَومِ أَضْحَكُ بِسَبَبِها كُلَّما صادَفْتُ حِماراً يَسيرُ على الطَّريق...



قالَت لنا جدَّتُنا ذاتَ لَيلَة:

- أتَعْلَمونَ يا أحِبّائي الصِّغارِ أنَّ الإنسانَ قَديماً لم يَكُن يَعْرِفُ سوى الخُيولِ، يركَبُها ويَنْتَقِلُ عَلَيها مِنْ مَكانٍ إلى آخرَ، ويَنْقُلُ عليها أمْتِعَتَهُ وأحْمالَهُ.. لقد كانَ الإنْسانُ يُرَبّي الحِصانَ وأُنْثاهُ الفَرَس، مُفْتَخِراً بهما، يُمَرِّنُهُما على الجَري السَّريع، ويُقيمُ لِلخُيولِ حَفلاتِ السِّباقِ، ومُبارياتِ الفُروسِيَّةِ، يَضْرِبُ مِنْ فَوقِ ظُهورِها الرِّماح...

والحِصانُ، وأُنْثاهُ الفَرَس، وابْنُهُما المُهْرُ، مِنْ أجْمَلِ الحَيَواناتِ شَكلاً. فَواحِدُها يَقِفُ على قَوائِمَ أرْبَعَةٍ قَوِيَّةٍ، تُعينُهُ على الجَري السَّريعِ، وتَنتَهي كُلُّ قائِمَةٍ بِحافِرٍ غير مَشْقوف.

وللحصانِ ظَهْرٌ قليلُ الانحناءِ في الوَسَطِ، يُساعِدُ الفارسَ على الرُّكوبِ والجُلوس براحة. ولَهُ رأسٌ صَغيرٌ مُسْتَطيلٌ، يَنْتَهي بأُذُنَينِ صَغيرَتَيْنِ مُنْتَصِبَتَينِ، تُزَيِّنُهُ عَيْنانِ مُسْتَديرتانِ كَبيرَتانِ، تُكْسِبانِه جَمالاً ورَوْعَةً. ويُغَطّي جِسْمَ الحِصانِ وَبَرٌ ناعِمٌ أمْلَس. أمّا ألْوانُ الخُيولِ فَمُتَعَدِّدَةٌ، مِنْها الأشْقَرُ أو الأسْوَدُ أو الأبيَض أو الأحمر.



فِي إحْدى المَزارِعِ، عاشَتْ مَجْموعَةٌ كَبيرةٌ مِنَ الخَيْلِ، تأكُلُ وتَشْرَبُ، وتَسْرَحُ في البَرِّيَّةِ مُجْتَمِعَةً.

كانت الأحْصِنَةُ والأفْراسُ تَنْصَحُ صِغارَها دائماً، أنْ لا تَذْهَبَ إلى المَرْعى وحْدَها، حتّى لا تَبتَعِدَ عن الطَّريق، فَتَصْعُبَ عَلَيها العَودَةُ إلى المَزْرَعَةِ، أو حتّى لا يُصادِفَها حَيَوانٌ وَحْشِيٌّ مُفْتَرِسٌ، فَيَقْتُلَها ثم يأكُلَها. لكِنَّ مُهْراً صَغيراً عَنيداً كانَ يُحِبُّ الأكْلَ كَثيراً، ولا يُريدُ أن يُشارِكَهُ فيهِ أحَدٌ.

ذاتَ يومٍ، غافَلَ المُهْرُ العَنيدُ أمَّهُ وأباهُ، وسارَ وَحيداً في طَريقِ المَراعي. وَصَلَ إلى حقلٍ مَزْروعٍ بالحَشائِشِ الطَّرِيَّةِ، فَأَعْجَبَتْهُ كَثيراً. وقَبْلَ أنْ يَبْدأَ بالتِهامِها، لاحَظَ مِنْ بَعيدٍ حَقْلاً أكْبَرَ فَذَهَبَ إلَيْهِ، ووَجَدَهُ مَزْروعاً بالشَّعير. وقَبْلَ أنْ يَبْدَأَ الأكلَ شاهَدَ من بَعيدٍ حَقلاً ثالثاً أكْبَرَ مِنْ هذا الحَقْلِ، فَذَهَبَ إليهِ، ووجَدَهُ مَزْروعاً بالقَمْحِ اللَّذيذِ الطَّيِّبِ...

قالَ المُهْرُ في نَفْسِهِ: ''يَظْهَرُ لي أَنَّي كُلَّما ابْتَعَدْتُ أكْثَرَ، وَصَلْتُ إلى حُقولٍ أوسَعَ، ومَزْروعاتٍ ألَذَّ وأطْيَبَ''.

عندئذٍ، عَزَمَ على المَسيرِ بَعيداً بَعيداً، لَعَلَّهُ يَجِدُ أكبَرَ المَزارِعِ وأوسَعَها لِيأكُلَ مِنْها كما يُريدُ ويَشْتَهي، بَعيداً عَنْ مُشارَكَةِ رِفاقِهِ وأهْلِهِ مِنَ الأحْصِنَةِ والأفْراس، والمِهارة. لَقَدْ كانَ مُهراً طَمّاعاً لا يُحِبُّ إلاّ نَفْسَهُ.



سارَ المُهْرُ العَنيدُ مَسافَةً طويلَةً، وقضى في السَّيْرِ وقْتاً طَويلاً مِنَ الزَّمَن، ثُمَّ انْتَبَهَ فجأَةً إلى ما حَوْلَهُ ، فَإذا هُو في صَحْراءَ رَمليَّةٍ قاحِلَةٍ، لا يوجَدُ فيها سوى بَعْض النَّباتاتِ الصَّحْراويَّةَ ذاتِ الأَوْراقِ القاسِيَةِ، والأَشْواكِ الحادَّة.

وكانَ المُهْرُ قَد تَعِبَ كَثيراً، وجاعَ كثيراً، ولَم يَعُدْ يَسْتَطيعُ العَوْدَةَ فارغَ المَعِدَة. فاضْطُرَّ المُهْرُ أنْ يأكُلَ الأوراقَ القاسِيَةَ والأشْواكَ الحادَّةَ الّتي وخَزَتْهُ كَثيراً في شَفَتَيْهِ ولِسانِهِ. عند ذلكَ، أحَسَّ المُهْرُ الطَّمّاعُ بِألَمٍ شَديدٍ في فَمِه، وبَعدَ قَليلٍ انْتَقَلَ الألَمُ إلى بَطْنِه بِسَبَبِ ما أَكَلَهُ مِنْ أعْشابٍ وأشْواكٍ ضارَّة. ثُمَّ لَم يَلْبَثْ أنْ أُغْميَ عَلَيهِ مِنْ تأثيرِ ما أكَلَ، ووقَعَ على الأرض فاقِداً الوَعْيَ مُدَّةً طويلة من الزَّمَن.



عندما خفَّ الألَمُ الّذي أصابَ المُهْرَ العَنيدَ الطَّمّاعَ، وعادَ إلَيْهِ وَعْيُهُ، قامَ يُريدُ العَودَةَ إلى المَزْرَعَةِ، وقدْ قارَبَتِ الشَّمْسُ على المَغيب. فَحاوَلَ أنْ يرْكُضَ كَعادَتِه، لِيَصِلَ إلى المَزْرَعَةِ قَبْلَ مَغيبِ الشَّمْسِ وحُلولِ الظَّلام، فلَمْ يَستَطِعْ، لأَنَّهُ شَعَرَ أنَّ مِشْيَتَهُ قد تَغَيَّرَت. فَقَوائِمُهُ قد قَصُرَتْ، فلا يَستَطيعُ الرَّكْضَ أوِ القَفْز. كما أَحَسَّ أنَّ جِسْمَهُ قد ثَقُلَ كثيراً عن السّابق.

وأرادَ المُهْرُ أن يَصْهَلَ كَعادَتِه بِصَوتٍ مُرْتَفع، لَعلَّ بَعضَ الخُيولِ تَسْمَعُهُ، فإذا صَوتُهُ قد تَغَيَّرَ، وبَدَلَ أن يَصْهَلَ، صارَ يَنْهَقُ بِصَوْتٍ خَشِنٍ كَريه.



وصَلَ المُهْرُ إلى المَزْرَعَةِ في صَباحِ اليَومِ التّالي بسَبَبِ بُطْءِ مِشْيَتِهِ وثِقَلِ جِسْمِهِ. وعندما وَصَلَ إلى المَزْرَعَةِ لم يَلْتَفِتْ إليهِ أبوهُ الحِصانُ، ولا أُمُّهُ الفَرَسُ، لأَنَّهُما لم يَعْرِفاهُ بَعْدَ أن تَغَيَّرَتْ أوصافُهُ. وبِسَبَبِ ما أكَلَ مِنْ أشْواكٍ ضارّةٍ، فَقَدْ كَبُرَ رأسُهُ، وطالَتْ أُذُناهُ، وخَشُنَ وَبرُهُ النّاعِمُ وأصْبَحَ لَوْنُهُ أغْبَرَ، بعدَ أنْ كانَ أشْقَرَ، وقَصُرَ ذَنَبُهُ، وخَفَّ شَعْرُ الذَّنَبِ، فَبدا مَنْظَرُهُ كَحَيَوانٍ غَريبٍ غَيرِ مَعْروفٍ مِنْ جَماعَةِ الخيولِ ؛ لذَلكَ أنْكَرَهُ الجَميعُ، وطَرَدوهُ منَ المَزْرَعَةِ.

تَعَجَّبَ المُهْرُ كَثيراً من هذا الإنْكارِ، وقالَ لأُمِّهِ وأبيهِ:

-« كيفَ لَمْ تَعْرِفاني ؟... أنا ابْنُكُما المُهْرُ الصَّغيرُ المَحْبوبُ!!!... »

فأجابَ الحِصانُ والفَرَسُ:

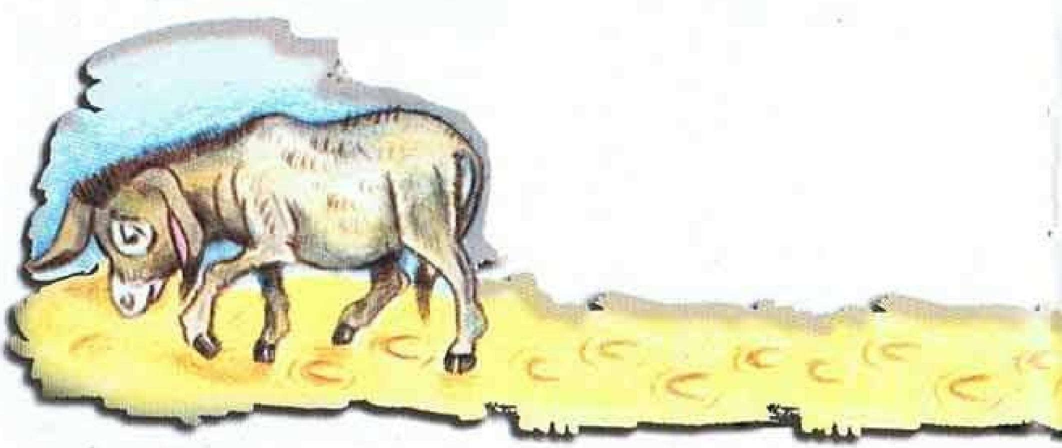
-«لا، أنتَ لَسْتَ ابْنَنا المُهرَ المَحْبوبَ، بلْ أنتَ حيَوانٌ غَريبٌ لَمْ نرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبلُ!! فمُهْرُنا رأسُهُ صَغيرٌ... وأنتَ رأسُكَ كَبيرٌ... ومُهْرُنا أُذُناهُ قَصيرَتانِ... وأنتَ أُذُناكَ طَويلتانِ... ومُهْرُنا ذَنَبُهُ طَويلٌ، وشَعْرُهُ ناعِمٌ... وأنتَ ذَنَبُكَ قصيرٌ وشَعْرُهُ خَشِن... ومُهرُنا وَبْرُهُ ناعِمٌ ولَونُهُ أشْقَرُ... وأنتَ وَبْرُكَ خَشِنٌ ولَونُكَ أغْبَرُ... وصَوتُ مُهرِنا صَهيلٌ جَميلٌ... وصَوتُكَ أنتَ نَهيقٌ كَريهٌ!!!»...

خَرَجَ المُهْرُ منَ المَزْرَعَةِ، حَزيناً كَئيباً، مَطْروداً من جَماعَةِ الخُيولِ، وعادَ أدْراجَهُ نحْوَ البَرِّيّةِ، بعدَ أن عَرَفَ أنَّ ما حَلَّ بهِ منْ تَغَيُّرٍ في جِسْمِهِ وصَوْتِهِ، هو بِسَبَبِ خُروجِهِ أمْسِ الأوَّلِ، بدونِ إذْنِ أهْلِهِ ومُرافَقَتِهِم كالعادَةِ، وذلك لِطَمَعِهِ بالعُشبِ الطَّريِّ الكَثيرِ.

كما عرَفَ، ذلك المُهْرُ المَغْضوبُ عَليهِ، أنَّ حُبَّهُ لِنَفْسِهِ، وعَدَمَ إطاعَتِهِ لِنَصائِحِ أهْلِهِ، قَدْ أوصَلاهُ إلى تلكَ الصَّحراءِ، ذاتِ الأعشابِ القاسِيَةِ، والأشواكِ الحادَّةِ. وعَرَفَ أنَّ أكْلَهُ مِنْ ذلكَ العُشْبِ الشّائِكِ الضّارِّ في تِلكَ الصَّحْراءِ البَعيدةِ، هُوَ سَبَبُ التَّغْييرِ الذي أصابَ جِسْمَهُ ووبْرَهُ وصَوتَهُ، وجَعَلَهُ يَبْدو أمامَ أهْلِهِ الخُيولِ كَحَيَوانٍ جَديدٍ غَريب.

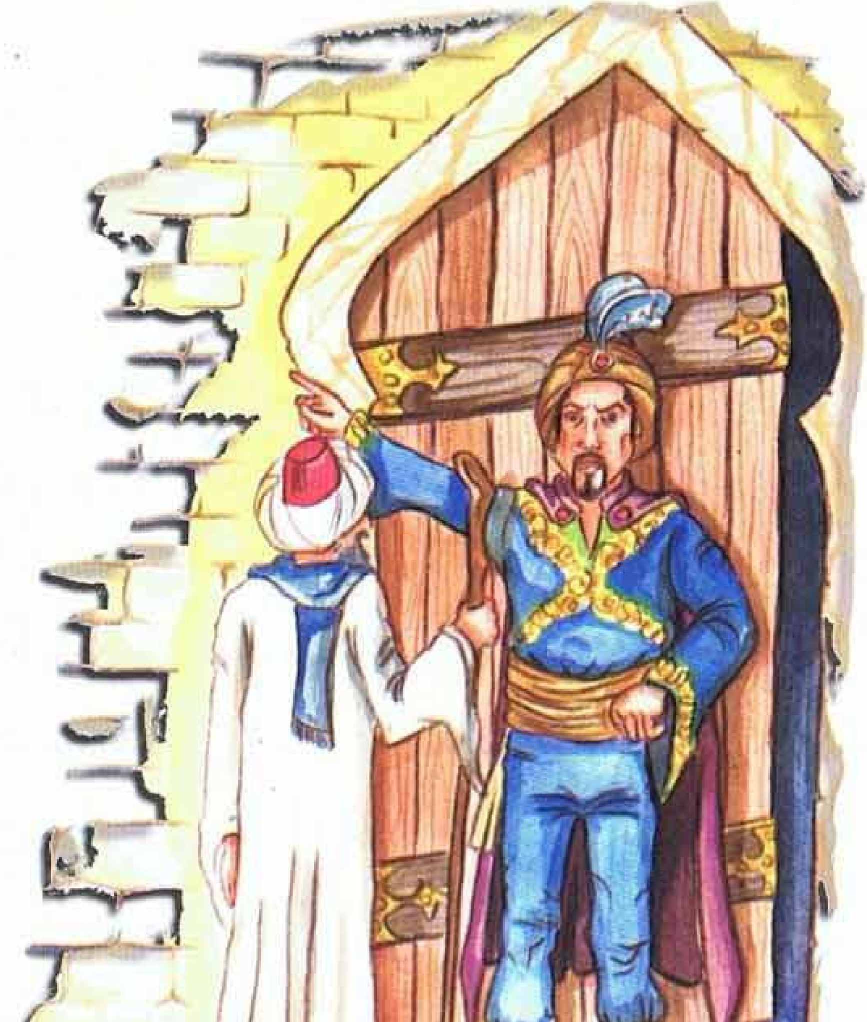


مُنذُ ذلكَ الوَقْتِ، عُرِفَ ذلك المُهرُ الطمَّاعُ العَنيدُ الّذي لم يستَمِعْ لِنُصْحِ والِدَيْهِ، ولَم يُطِعْهُما، باسْمِ "الحِمار"، ومِنْهُ تَناسَلَ، بَعدَ ذلك، جَميعُ الحَميرِ، فَكانَ هو بِحَقٍّ... "جَدُّ الحَمير".



القَناعةُ

في ضاحِيَةٍ مِنْ ضواحي المدينةِ، عاشَ شَقيقانِ: أحَدُهُما غَنيٌّ جِدّاً، يَسْكُنُ قَصْراً كبيراً، تُحيطُ بهِ حَديقَةٌ زُيِّنَت مَداخِلُها بالأزْهارِ العَطِرَةِ، وغُرِسَتْ جَوانِبُها بالأشْجارِ المُثْمِرَةِ، تَجْري المِياهُ العَذْبَةُ في أحواضِها الواسِعَةِ، وتتَساقطُ من نَوافيرِها الرّائِعَةِ. والثّاني فَقيرٌ، يَسْكُنُ بَيْتاً صَغيراً مُتَواضِعاً قُرْبَ قَصْرِ أخيهِ الغَنيِّ.



فِي إحدى اللَّيالي المُظلِمَةِ، مَرَّ مِنْ تلكَ النَّاحِيَةِ رَجُلٌ كَبيرُ السِّنِّ، يَتَوَكَّأُ على عَصاه. وَصَلَ إلى القَصْرِ الكَبير، وطَرَقَ بابَهُ، فخَرَجَ إليهِ خادِمُ القَصْرِ وقالَ لَهُ: ''ماذا تُريدُ أيُّها الشَّيْخُ؟''.

فأجابَ الشَّيخُ: ''أُريدُ صاحِبَ هذا المَنْزِلِ الكَريم''.

ظَنَّ الخادِمُ أنَّ هذا الشَّيْخَ العَجوزَ يَعْرِفُ سَيِّدَه. فذَهَبَ إلى صاحِبِ القَصْرِ وقالَ لَهُ: ''شَيخٌ كَبيرُ السِّنِّ يَسألُ عَنك''.

خَرَجَ صاحِبُ القَصْرِ إلى البابِ، فَوَجَدَ أمامَهُ رَجُلاً مُسِنّاً، حافِيَ القَدَمَيْنِ، لم يَعْرِفْهُ ولم يَسْبِقْ لَهُ أنْ رآهُ. فَقالَ لَهُ: ''ماذا تُريدُ أيُّها الشَّيخ؟''.

أجابَ الشَّيخُ: ''إنَّني رَجُلٌ غَريبٌ عَنْ هذِهِ المَدينَةِ، وقَدْ حَلَّ الظَّلامُ، وأريدُ المَبيت. فَهَل تَستَضيفُني في مَنْزِلِكَ العامِرِ لَيلَةً واحِدَةً، يا سَيِّدي؟''.

لَمْ يُجِبْهُ الغَنيُّ، بلْ أدارَ لَهُ ظَهْرَهُ، وأمَرَ الخادِمَ بإغلاقِ بابِ القَصْرِ في وَجْهِهِ، بِكُلِّ وَقاحَةٍ وكِبرياء.

إنْصَرَفَ الشَّيْخُ المِسْكينُ مَكْسورَ الجَناحِ حَزيناً، وأَخَذَ يَبْحَثُ عن مكانٍ آخرَ يَبيتُ فيهِ لَيْلَتَه. بَيْنَما هوَ سائِرٌ في ظَلامِ اللَّيلِ، ولم يَكُن قد ابْتَعَدَ إلاّ قَليلاً عن بابِ القَصْرِ، سَمِعَ وَقْعَ أقدامٍ خَلْفَه. إلتَفَتَ إلى الوَراءِ، فرأى رَجُلاً فقيراً بَسيطَ المَظْهَرِ؛ إنَّهُ شَقيقُ صاحِبِ القَصْرِ، وساكِنُ البَيْتِ الصَّغيرِ المُجاورِ له. قالَ الرَّجُلُ الفقيرُ للشَّيْخ: "يا عَمّ.. ياعَمّ، يَبدو أنَّكَ غَريبٌ عَن دِيارِنا. أخْبِرْني إلى أيْنَ أنتَ ذاهِب. إذا لم يَكُنْ هناكَ مَنْ تَعْرِفُهُ في هذه النَّاحِيَةِ، فلَيْسَ أمامَكَ أقْرَبُ مِنْ بَيْتي، ستَجِدُ فيهِ مَكاناً لِمَبيتِك".

فَرِحَ الشَّيْخُ كَثيراً بهذا الرَّجُلَ الكَريمِ، وقَبِلَ دَعْوَتَهُ بسُرورٍ وذَهَبَ مَعَهُ إلى بَيْتِهِ الصَّغيرِ، وهوَ يَشْكُرُ له كَريمَ دَعْوَتِهِ، ويَدْعو لهُ بكُلِّ خَيْر.

قَدَّمَتْ زَوْجَةُ صاحِبِ البَيْتِ العَشاءَ لزَوجِها وضَيْفِهِ، فَأَكَلا هَنيئاً حتّى شَبعا. وفي نِهايَةِ السَّهْرَةِ، قَدَّمَ صاحِبُ البَيْتِ لِضَيْفِهِ فِراشَهُ الوَحيدَ، فَنامَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ سَعيداً ومُرْتاحاً حتّى الصَّباح.

بَعْدَ تَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ، وشُرْبَ القَهوَةِ، وَدَّعَ الشَّيْخُ الرَّجُلَ الفَقيرَ، وشَكَرَ لهُ حُسْنَ ضِيافَتِهِ. وعندما خَرَجا إلى الطَّريق معاً، قالَ الشَّيْخُ لِمُضيفِهِ: ''أنْتَ رَجُلٌ طَيِّبٌ، كَريمٌ، قانِعٌ بِحَياتِكَ، واللَّهُ يُحِبُّ الكِرامَ، ويُحِبُّ القانِعينَ، وقد قَدَّمتَ لي مَعْروفاً لن أنْساهُ لَكَ أبَداً، والمَثَلُ يَقولُ: «القَناعَةُ كَنزٌ أشرَفُ مِنَ الغِنى، وأحسَنُ مِنَ المال». وما عَليكَ، أيُها الشَّهمُ الكَريمُ، إلاّ أن تَتَمَنّى عَلَيَّ ثَلاثَةَ أشياءٍ، سأدعو اللَّهَ أنْ يُحَقِّقَها لَكَ، جَزاءَ كَرَمِكَ ولُطفِكَ وقَناعَتِكَ...''

فَتَمَنّى الرَجُلُ الفَقيرُ على اللّه أوّلاً: أنْ يُصْبِحَ في بَيتِه الطَّعامَ الكافِي لإطعامِ عائلَتِه وضيوفِهِ دائماً. ثانياً: أنْ يُمَتِّعَهُ اللَّهُ، وزوجَتَهُ وأولادَهُ، بالصِّحَّةِ والعافِيَة. ثالثاً: أنْ يُصبِحَ بَيتُهُ كَبيراً وجَميلاً، تُحيطُ به الحَدائِقُ الغنّاءُ، والمَزارِعُ الواسِعَة، ذاتُ الأشجارِ المُثمِرَةِ، والمِياهِ الجارِيَة، ليَعمَلَ فيها مَعَ أولادِهِ، ويَعيشوا سُعَداء.



عندما عادَ الفَقيرُ إلى بَيْتِه، بَعدَ وَداعِ ضَيْفِهِ الشَّيخِ، لَمْ يَجِدِ البَيْتَ الصَّغيرَ الّذي كانَ يَسْكنُ فيهِ، بل وَجَدَ مَكانَهُ قَصْراً جَميلاً، تُحيطُ بِهِ الحَدائِقُ الغَنّاءُ، والأشْجارُ المُثمِرَةُ، تَتَخَلَّلُها مَجاري المِياهِ العَذْبَةِ. كما رأى زوجَتَهُ وأولادَهُ، يَعْمَلونَ في حَدائِقِ القَصرِ، وهُم سُعداءُ فَرِحونَ، لِما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِه.

دَخَلَ الرَّجُلُ الفَقيرُ وزوجَتُهُ إلى القَصرِ، الّذي أنْعَمَ اللّهُ بِهِ عَلَيهم بِبَرَكَةِ دُعاءِ ذلكَ الشَّيخِ الوَقورِ، فَوَجَدوهُ مَفروشاً بِأَجمَلِ الأثاثِ، تَملأُ خِزانَتَهُ الثِّيابُ الجَديدةُ الفاخِرَةُ، وتَملأُ المُؤونَةُ مُستَودَعَ حُبوبِهِ، والأطعِمَةُ الشَّهيَّةُ آنِيَةَ مَطبَخِه.



فَرِحَتِ العائِلَةُ كَثيراً بِهذهِ النِّعمَة. وعَرَفوا أنَّ ضَيفَ الأمْس، الّذي استَقبَلوهُ بما رَزَقَهُمُ اللّهُ من زادٍ قليل، ومن فِراشٍ بَسيطٍ، كانَ رَجُلاً مُبارَكاً طَيِّباً، إستَجابَ اللّهُ لِدَعَواتِهِ الصّالِحاتِ لَهُم. وهذا جَزاءُ إكرامِ الضَّيفِ، والقَناعَةِ بما قَسَمَهُ اللّهُ مِنَ الرِّزْق.

أمّا الشَّقيقُ الغَنيُّ، فقَد فُوجِئَ - عِندما خَرَجَ إلى شُرفَةِ منزِلِهِ - بِرُؤيَةِ هذا القَصْرِ الجَميل تِجاهَ قَصْرِهِ، مكانَ البَيْتِ الصَّغيرِ المُتَواضِعِ الّذي كانَ يَسكُنُهُ شَقيقُهُ الفَقير. فَعَجِبَ ذلك الغَنيُّ كَثيراً من هذا التَّبَدُّل، وطَلَبَ مِنْ زَوجَتِهِ أنْ تَذهَبَ لِزيارَةِ أخيهِ الفَقير، لِتَعلَمَ سِرَّ هذا الأمْرِ العَجيب.



عندما وَصَلَتْ زَوجَةُ الغَنيِّ إلى بَيْتِ شَقيق زوجِها، بلْ قُلْ قَصْرَهُ الجَديدَ، إسْتَقبَلَتْها زوجَتُهُ في صَالَةٍ واسِعَةٍ، مَفْروشَةٍ بالمقاعِدِ الوَثيرَةِ، والسَجاجيدِ الجَميلَةِ الألوانِ، وقَدَّمَتْ لها الشّايَ المُعطّرَ بعد الأشْربَةِ المُثلَّجَةِ، وغير ذلك من ضُروبِ الضِّيافَةِ اللائقَةِ.



سَأَلَتْ زَوجَةُ الغَنِيِّ سِلْفَتَها عن أَسْبابِ هذا الغِنى المُفاجِئِ الّذي أصابَهُم. فَقَصَّتْ عَلَيها زَوجَةُ الفَقير، كيفَ استَضافَ زَوجُها الشَّيْخَ المُسِنَّ الّذي لم يَستَقبِلْهُ زوجُها، وكيفَ أَطْعَمَهُ وأكرَمَهُ، وكيفَ دعا ذلك الشَّيْخُ لِزوجِها أنْ يُحَقِّقَ لَهُ أُمْنِياتِهِ الثَّلاثة. فوصَلوا ببَرَكَةِ دُعاءِ ذلكَ الوَلِيِّ الصّالح إلى هذه الحياةِ المُبارَكَةِ السَّعيدَة.

عادَتْ زوجَةُ الغَنِيِّ تَوّاً إلى بيْتِها، وأَخْبَرَتْ زَوْجَها بما جَرى، وأَعْلَمَتْهُ أنَّ الشَّيْخَ الّذي حَضَرَ إليهِ بالأَمْس، ولَمْ يَسْتَقْبِلْهُ، كانَ سَبَبَ كُلِّ هذا النَّعيم. ثُمَّ طَلَبَتْ إلى زَوجِها أن يَرْكَبَ حِصانَهُ القَوِيَّ، ويَذهَبَ مُسْرِعاً للبَحْثِ عن هذا الشَّيْخِ في كُلِّ مَكانٍ، لِيَدْعُوَهُ ويُحْضِرَهُ لِلإِقامَةِ عِنْدَهُمْ، أُسْبوعاً كامِلاً.

رَكِبَ الغَنيُّ حِصانَهُ ولَحِقَ بالشَّيْخِ مُسْرِعاً، باحِثاً عَنْهُ في كُلِّ مَكانٍ، حتّى صادَفَهُ أخيراً، في مَكانٍ بَعيدٍ عَنِ البَلَد.

نَزَلَ الغَنِيُّ عَنْ حِصانِهِ، وسَلَّمَ على الشَّيْخِ باحتِرامٍ، وقالَ لَهُ:

- ''لِمَ لَمْ تَنْزِلْ أمْسِ في ضِيافَتِنا، ياسَيِّدي الشَّيْخُ؟ ... لقد تَرَكْتُكَ ودَخَلْتُ إلى البَيتِ، لآتيَ بِمُفتاحِ مَضافَتي، بعدَ أنْ تَقابَلْنا. وعندما رجِعْتُ، لم أَجِدْكَ أمامَ بابِ القَصْرِ،



فانْتَظَرْتُكَ طوالَ اللَّيْلِ، لَعَلَّكَ تَعودُ، ولَكِنَّكَ لم تَعُد''.

فَأَجابَهُ الشَّيْخُ:

-'' شُكراً لَكَ، يا وَلَدي. من عادَتي إذا خَرَجْتُ من قَريَةٍ، أنْ لا أعودَ إليها، خِلالَ سَنَةٍ كامِلَةٍ. وأعِدُكَ إذا مَرَرْتُ مَرَّةً أُخرى في قَريَتِكُم، أنْ أنزِلَ في ضِيافَتِكَ، إنْ شاءَ اللّه''.

فقالَ الغَنيُّ، وقَدْ خافَ أنْ لا يَرْجِعَ الشَّيْخُ بعدَ الآن:



-"وهَلْ تَسْمَحُ لي يا سَيِّدي، أنْ أتَمَنّى عَليكَ، ثَلاثَ أُمْنياتٍ قَبْلَ رَحيلِك؟".

-"إرْجِعْ أيُّها الرَّجُلُ إلى منْزِلِكَ، وتَمَنَّ على اللّهِ ثَلاثَةَ أشْياءٍ وأنتَ في الطَّريق، وسَتُقبَلُ منْكَ إنْ شاءَ اللّه".

فَرِحَ الغَنِيُّ بذلكَ كَثيراً، وقَفَلَ راجِعاً إلى بيتِه. وبينما كان في الطَّريق يَسيرُ مُمتَطِياً حِصانَهُ، عَثَرَتْ قَدَمُ الحِصانِ، فَقَفَزَ قَفْزَةً كادَتْ تَرمي بالغَنِيِّ عن ظَهْرِه.

فَغَضِبَ الغَنِيُّ على الحِصانِ وقال:

-"لَقَدْ أزْعَجْتَني، أيُّها الحِصانُ الملْعونُ، كَسَرَ اللّهُ رقبَتَكَ".

ولَمْ يَكَدْ يُتِمُّ الغَنِيُّ هذِهِ الجُمْلَةَ، حتّى وَقَعَ الحِصانُ على الأرضِ، وانْكَسَرَتْ رَقَبَتُهُ، وماتَ حالاً.

قامَ الغَنِيُّ عَنْ ظَهْرِ الحِصانِ، وحَلَّ سِرْجَهُ، وحَمَلَهُ على كَتِفِهِ، بَعدَ أنْ ماتَ الحِصانُ، وتابَعَ طَريقَهُ إلى مَنزِلِهِ ماشِياً.

واشتَدَّ الحَرُّ في الطَّريق وتَعِبَ الغَنيُّ، وتَصَبَّبَ العَرَقُ من وجهِهِ وجِسمِه. ففكَّرَ بحالتِه، وكيفَ أنَّ زوجَتَهُ تَجلسُ الآنَ في بَيتِها مُرتاحَةً، وأنَّها سَبَبُ إرْسالِهِ إلى مُقابَلَةِ الشَّيْخ. وأنَّ طَمَعَها كانَ سَبَباً لِكُلِّ هذا التَّعَبِ، فَقال:

- ''حَبَّذا، لو كانت زوجَتي فَوقَ هذا السَّرج، لِتَشْعُرَ بما أشعُرُ بهِ من حَرٍّ، وتَتَضايَقَ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ والعَرَق''.

لم يَكدْ يُتِمُّ الغَنيُّ هذهِ الجُملَةَ، حتّى استَجابَ اللّه لِطَلَبِهِ الثّاني. وإذا بزوجَتِهِ فَوقَ السَّرج، الّذي يَحمِلُهُ على كَتِفِه. فَحاوَلَ الغَنيُّ أن يُنزِلَ زوجَتَهُ والسَّرْجَ عن كَتِفِهِ، فلمْ يَستَطِع.

مَشى الغَنيُّ بعد ذلكَ بِحملِه الثَّقيل، ثُمَّ مَشى... ومَشى... ومَشى، تحتَ حَرارَةِ الشَّمس المُحرقَةِ، حَتّى وَصَلَ إلى مَنزِله. وعندما أرادَ إنْزالَ زوجَتِه والسِّرج عن كَتِفِه، لم يَستَطِعْ. فقالَ لِزوجَتِه:

-''ماذا أتَمَنّى على اللّهِ الآنَ، ولم يَعُد ليَ الحَقُّ إلاّ بأُمنيَةٍ واحِدَةٍ...؟''.

فأجابَتِ الزَّوجَةُ: ''تمَنَّ على اللّهِ، أنْ يَملأَ قَصرَنا هذا ذَهَباً وفِضَّة''. فقالَ الغَنيُّ: ''وما فائِدَةُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ لَنا إذا بَقيتِ هكذا لاصِقَةً بي، وراكِبَةً على السَّرْجِ، فَوْقَ كَتِفي. الأحسَنُ أن أتَمَنّى نُزولَكِ وهذا السَّرْجَ اللَّعينَ عن كَتِفي ورَقبَتي''.

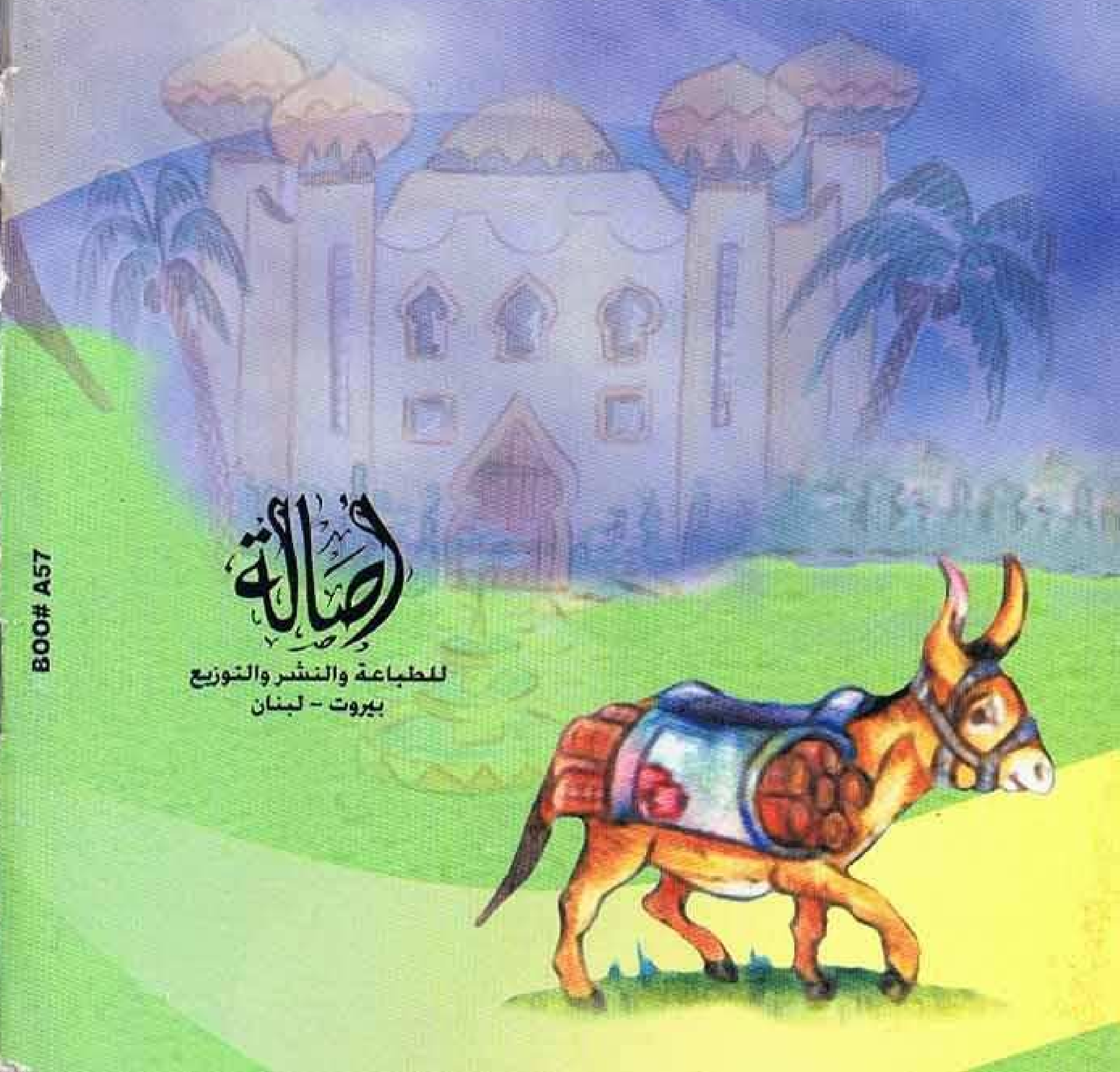
لَمْ يكدِ الغَنِيُّ يُتِمُّ كَلامَهُ، حتى نزَلَتْ زَوجَتُهُ عن كَتِفِهِ، وزالَ السَّرْجُ المُلْتَصِقُ برَقْبَتِهِ، وأصْبَحا على الأرض. عندَ ذلكَ، إرتاحَ الغَنِيُّ من حِمْلِهِ الثَّقيل، وجَلَسَ على الأرض مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ. ثُمَّ نَظَرَ إلى زَوجَتِهِ، وقالَ لها: ''لَقَدْ طَمِعْنا في هذِهِ الحَياةِ كَثيراً. ونحن على الرَّغم من غِنانا، لَمْ نُكْرِمْ أحداً، ولَمْ نُطعِمْ جائِعاً، ولم نُساعِدْ فَقيراً. فأتْعَبَنا اللّهُ اليَومَ، جَزاءَ شُحِّنا وبُخْلِنا، وحَرَمَنا مِنْ كُلِّ فَضْلٍ، وذِكرٍ حَسَنٍ. وهذِهِ عاقِبَةُ البُخْلِ والطَّمَعِ''.





تروي "جد الحمير" قصة مهر أدى به العناد والطمع إلى مصير بائس لا يحسد عليه لينال بعده وباستحقاق لقب "جد الحمير".

ويظهر الطمع كذلك في قصة "القناعة"، ليوقع صاحبه في المتاعب.
فيما يحظى القانع بما لم يكن ليحلم به.
فكيف حدث كل ذلك؟



أصالة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
BOO# A57